## السورة الثانية

# الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

نحن الآن مع السورة رقم ١١٤، أي الأخيرة في الترتيب من سور الكتاب العزيز. وسنتحرّك لاكتشاف حقائق الإعجاز في لغتها الجديدة على الخُطى نفسها التي تحرّكنا بها مع الفاتحة، فنبدأ بإلقاء نظرةٍ على ألفاظها ومصطلحاتها الجديدة، ثمّ نتفحّص الجديد في الصيغ والعلاقات اللغويّة والنحويّة والبيانيّة التي تربط بين هذه الألفاظ، ثم نحاول بعد ذلك اكتشاف الجديد في سبائكها اللغويّة، فالجديد في مواقعها المنفتحة ذات الأبعاد المتعدّدة، وأخيراً الجديد من جوامع الكلِم.

وإذا عرفنا أنّ عدد ألفاظ هذه السورة ٢٠ لفظاً أدركنا قيمة أن يكون فيها ٣٣ نقطةً جديدةً لم يعرفها قاموس العربيّة قبل الوحي.

ومرةً أخرى؛ لا بدّ من التذكير بأنّ كلّ نقطةٍ نتحدّث عنها من جوانب الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن لن يكون لها في نفوسنا ذلك الصدى لو نظرنا إليها منفصلةً عمّا قبلها وما بعدها من النقاط. ولو افترضنا أنّ لكلّ نقطةٍ شُحنةً كهربائيّةً لا تزيد قوّتها عن ٥ إلى ١٠ فولت، فقد نُحسّ لو أمسكناها، أو لا نكاد نحسّ، بارتعاشةٍ طفيفةٍ تداعب يدنا، ولكن لو اجتمع العشرات منها في سورةٍ صغيرةٍ كهذه لتحوّلت في نفوس من يسمعونها لأوّل مرّةٍ إلى صعقةٍ تهزّهم من الأعماق، كما فعلت حقاً مع العربيّ الأوّل.

وتتبدّى الشخصيّة اللغويّة للسورة بتفرّدها بلفظين جديدين خاصّين بها هما ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ وخمسة تعبيرات لا تتكرّر أيضاً في أيّة سورةٍ أخرى، وهي: ﴿ بِرَبِّ ﴾، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾، ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾، ﴿ يُوَسْوِسُ فِى ﴾، ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾، يضاف إلى ذلك استقلال السورة بموضوعها الفريد الذي لم تشاركها به أيّة سورةٍ أخرى، وهو التعوّذ بالله من وسوسة شياطين الإنس والجنّ.

## أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- **قُلْ** (فعلٌ قرآنيٌّ، وابتداءٌ غير معهود، ومتكلّمٌ ومخاطَبٌ غير محدّدين، ومعنىً جديد، وغير متلوٍّ باللام، وجوابٌ لطلبٍ أو شرطٍ حُذف مع الفاء الرابطة له):

قد يخيّل إلينا أنّه فعلٌ عاديٌّ جداً، فهو شائعٌ وكثير الاستعمال في لغتنا، اليوميّة والرسميّة، ولكنّه في السورة غير عاديٍّ مطلقاً. إنه يختلف عن أيّ (قُل) نعرفها خارج القرآن الكريم في سبع صفات:

أ- أنه واحدٌ من أعلى الألفاظ أرقاماً في القرآن الكريم. فهو يتكرّر فيه ٣٣٢ مرة -لا يدخل في هذا الرقم المشتقّات الأخرى لهذا الفعل- على حين لا نجده في الشعر الجاهليّ -الذي يزيد حجم ما بين أيدينا منه على حجم القرآن الكريم- أكثر من ٧ مرّات، ممّا يجعل منه لفظاً ذا صبغةٍ قرآنيّةٍ غير عاديّة.

ب- أنه يأتي في بداية السورة، وهي وحدةٌ أدبيّةٌ أو لغويّةٌ كاملة، ولم يعتدِ العرب سابقاً، ولا لاحقاً، أن يبدأوا مقالتهم، أياً كان شكلها الأدبيّ، شعراً أو نثراً، هكذا بفعل الأمر، وبصيغة الإفراد أيضاً: قُل.

ت- ث - أنه، في أذن العربيّ الذي سمعه لأوّل مرّة:

- صادرٌ عن متكلّمٍ مجهولٍ، هو الآمِر، غير مذكورٍ في السورة، وإن كنّا نعلم الآن أنّه الله سبحانه وتعالى

- وموجَّهٌ إلى مخاطَبٍ مجهولٍ، وهو المأمور، غير محدّدٍ في السورة، وإن كنّا نعلم الآن أنّه رسول الله ﷺ

جـ- لا مفرّ من الافتراض، لو حاولنا إيجاد تسويغ نحويٍّ لابتداء الكلام بهذا الفعل، أنّه جاء جواباً لسؤالٍ مقدّر: ماذا أقول؟ أو جواباً لشرطٍ محذوفٍ تقديره أقرب إلى أن يكون: إن شئت اتّقاء شرّ الشيطان فقل أعوذ.. وبهذا تكون الفاء، المفترض أن تكون رابطةً لجواب الشرط هنا، قد حُذفت أيضاً.

حـ- أنه يحمل معنىً مختلفاً عن المعنى التقليديّ، فهو هنا بمعنى: اقرأ، أو: ردّد، أو: أُتْلُ، على حين عرفه العرب بمعنىً آخر هو: بلِّغ، أو: أخبِر.

خـ- أنه، وقد اختلف معناه، تخلّى عن اللام بعده، وقد اعتاد العرب تعدِيته بها فقالوا:

قلْ لابنِ كُلثومٍ الساعي بذِمّتِهِ  أبشِرْ بحربٍ تُغِصُّ الشيخَ بالريقِ
بشر بن عمرو (ت؟ ؟)

ألا قلْ لمن تزدريهِ الحُرو  بُ تنحَّ وخلِّ لها دارَها
سعد بن مالك البكري (ت ٩٥ ق.هـ)

قلْ للمثلِّم وابنِ هندٍ بَعدَهُ  إنْ كنتَ رائمَ عِزِّنا فاستقدِم
سَنان المُرّي (ت ٣٣ ق.هـ)

لاحظ في الأبيات السابقة أنّك لا تستطيع في أيٍّ منها إحلال الفعل (اقرأ) أو الفعل (اتلُ) محلّ الفعل (قُلْ). والغريب أنه بين ٣٣٢ حالةً قرآنيّةً لا نجد هذا

الفعل متلوّاً باللام إلاّ في خمس عشرة منها فحسب. ولو وضعنا هذه الحقيقة بإزاء حقيقة أن الشعر الجاهليّ لم يعرف هذا الفعل إلاّ متلوّاً باللام؛ أدركنا قيمة هذه الظاهرة القرآنيّة الجديدة، والدلالة الهامّة لحجمها، ومدى تَميُّزها عن اللغة البشريّة السائدة.

حتى إنْ جاء هذا الفعل القرآنيّ بمعنى (أخبِرْهم) أو(أجِبْهم) فإنه، خلافاً للشعر الجاهليّ، كثيراً ما يتخلّى عن اللام بعده، ومن ثمّ عن المتعدّي إليه، أي المقُول له، كما في الآيات التالية:

- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (أي: قُل لهم) [الزُمر: ٩]
- ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (أي: قل لهم) [الزُمَر: ٥٣]
- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (أي: أجبْهم، أو: قُل لهم) [الكافرون: ١-٢]
- ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ (أي أخبِرهم، أو: قل لهم) [الإخلاص: ١-٢]

وتزداد أهمّية هذه الظاهرة القرآنيّة بروزاً إذا أدركنا أنّ الفعل لا يَرد في الحديث الشريف، ولا في لغتنا، إلاّ موجَّها إلى مخاطَبٍ محدّد، وغالباً ما يكون هذا المخاطَب في الحديث سائلاً يسأل الرسول ﷺ فيردّ عليه، أو يرِد في شكل نصيحةٍ يلقيها ﷺ على شخصٍ محدّدٍ يتحدّث إليه، حتّى إن أمكن بعد ذلك إسقاط الحديث على بقيّة المسلمين:

- ".. يا عمِّ قل لا إلهَ إلاّ الله، كلمةً أشهدُ لكَ بها عند الله.."(١)
- ".. فلا تقُل: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل.."(٢)

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٧، حديث رقم ١٢٩٤.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٥٢، حديث رقم ٢٦٦٤.

- ".. عَلِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قُلِ اللهمّ إنّي ظَلمتُ نفسي ظُلماً كبيراً، ولا يغفِرُ الذنوبَ إلاّ أنت، فاغفِر لي مَغفرةً مِن عِندِك.."[1]

**٢- أعوذ:**

لم يعرف العرب، على الأغلب، الفعل (أعوذ) في صيغته الدعائيّة هذه، ولم أجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً ستؤيّدونني في الشكّ بصحّتها، لأنّ السياق الذي وردت فيه ليس جاهليّاً، وفي معاني الأبيات الأربعة التي وردت فيها آثارٌ لما لا يقلّ عن ستّ آياتٍ قرآنيّة، وتُنسب الأبيات، مع ذلك، إلى الحُصين بن حمام الفَزاري (ت ١٠ ق.هـ):

أعـوذُ بربّـي مـن المُخزيـــا ... تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها
وخَــفَّ الموازيـنُ بالكافريـنْ ... وزُلـزلـتِ الأرضُ زِلـزالَــها
ونادى مُنادٍ بأهلِ القبـــورْ ... فهـبّـــوا لتُبـــرَزَ أثقالَـــها
وسُعِّرتِ النارُ فيها العــذابْ ... وكـان السلاســلُ أغلالَــها

وممّا يسوّغ شكوكنا هذه ما نُقل من أنّ هذا الشاعر أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأنّ أرقام ورود هذا اللفظ، إن وُجد حقاً في الفترة الجاهليّة، ترتفع في الشعر العربيّ فجأةً، ومباشرةً بعد العصر الجاهليّ، لتزيد على ٢٢ مرة حتى نهاية العصر الأمويّ، وهو فرقٌ أكبر من أن نجد له تفسيراً غير جدّة هذا اللفظ وقرآنيّته.

ويروي المفسّرون في تفسير آية سورة (الجنّ): ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ رواياتٍ مختلفةً عن أنّ العرب اعتادوا أن يستخدموا هذا الفعل إذا حلّوا في مكانٍ أو وادٍ فيستعيذون بسادتهم من جنّ هذا الوادي، ولكنّ المفسّرين لا يذكرون في توثيق روايتهم ما يمكن أن نطمئنّ إليه من أسانيد. ففي تفسير الفخر الرازي لهذه الآية:

"فيه قولان: الأوّل: وهو قول جمهور المفسّرين، أنّ الرجل في الجاهليّة إذا سافر فأمسى في قفرٍ من الأرض قال: أعوذ بسيّد هذا الوادي، أو بعزيز هذا

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٨٦، حديث رقم ٧٩٩.

المكان، من شرّ سفهاء قومه.. وقال آخرون: كان أهل الجاهليّة إذا قَحطوا بعثوا رائدهم، فإذا وجدَ مكاناً فيه كلأٌ وماءٌ رجع إلى أهله فيناديهم، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادَوا: نعوذ بربّ هذا الوادي من أن يصيبنا آفةٌ، يعنون الجنّ.."[1].

حتّى إن كانت هذه المنقولات صحيحةً، فلا ينبغي أن ننسى أن المفسّرين قد استعملوا لغتهم الإسلاميّة، وليس الجاهليّة طبعاً، في سرد هذه الأخبار، وبدهيٌّ إذن أن تتسرّب مثل هذه الألفاظ القرآنيّة إلى ألسنتهم.

**٣- الوسواس:**

لقد عرف العرب هذا الفعل قبل الإسلام، ولكن بعيداً عن المعنى المجازيّ الجديد الذي أضافه إليه القرآن.

فهو عندهم لا يعدو صوت الحُلِيّ، أو همسَ الصياد مع الكلاب. وكأنّما شَبّه القرآنُ صوت الشيطان، وهو يهمس في أذن ضحيّته بعيداً عن أسماع الآخرين، بوسوسة الحُليّ في يدَي المرأة وهي تكاد لا تُسمَع، أو بحديث الصيّاد وهو يهمس في كلابه همساً خشية تنبيه صيده وإفلاته من يديه.

ورغم أننا نعثر على هذا اللفظ ٥ مرّات على الأقلّ في الشعرين الأمويّ والإسلاميّ فإننا لا نجده بهذا المعنى في الشعر الجاهليّ أبداً، ويرد مرةً واحدةً في بيتٍ لحاتم الطائي (ت ٤٦ ق.ه) ولكن في غير المعنى القرآنيّ، وفي غير لفظه:

إذا انقلبتْ فوق الحشَيَّةِ مَرّةً ترنّمَ وِسواسُ الحُليِّ ترَنُّما

فاستعماله هنا كان بالمعنى الأصليّ والحسّي وهو (صوت الحليّ) لا بالمعنى المجازيّ الجديد، فهو على ذلك مصدر، ويُفترَض بالحرف الأوّل من هذا المصدر (وهو ما يسمّونه فاء الفعل) أن يكون مكسوراً (وِسواس) -كما هو في البيت حقّاً- شأن مصادر الأفعال الرباعيّة المضعّفة (أي التي يتوالى فيها حرفان مرّتين) كقولنا (زِلزال) من (زَلزلَ). ولكنّ اللفظ جاء في الآية مفتوح الواو، فهو لهذا اسمٌ لا مصدرٌ،

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ج٣٠، ص١٣٨.

شأنه في ذلك شأن اللفظ (ثَرثار). إنّه إذن (الشيطان نفسُه) وليس (صوتَ الشيطان).

ولكنْ لو صحّ ما قاله أبو هلال العسكريّ في كتابه الهامّ (الفروق اللغويّة)[1] من أنّ القرآن استعمل هنا المصدر وهو يعني الاسم، وصحّ قول الرازيّ والقرطبي حين جعلا (الوسواس) -بفتح الواو- و(الزَلزال) -بفتح الزاي- مصدرين (أي بمعنى: وسوسة وزلزلة) فسيكون القرآن بهذا قد سَبق إلى إطلاق صيغة المصدر (وَسواس)، من باب المجاز أو من باب الحقيقة، على ما مِن حقّه الاسميّة، وهو الشيطان، لأنّ هذا الأخير ذاتٌ وليس حدثاً، وتكون هذه نقطةً جديدةً أخرى من نقاط الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن.

أمّا في الحديث الشريف فإنه يرِد -خارج أيّ اقتباسٍ قرآنيّ- بمعنىً فقهيٍّ مختلفٍ عن المعنى القرآنيّ وهو التحرّج من النجاسة، أو بمعنى الشكّ، كما في قوله ﷺ:

- لا يبولَنّ أحدُكم في مُستَحَمِّه فإنّ عامّة الوَسواسِ منه[2]

- اللهمّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، وأعوذ بك من وَسواسِ الصَدر، وشَتاتِ الأمر، وفتنةِ القبر[3]

نعم، وأعترف من جديد، أنّ من حقّ أحدنا الاعتراض هنا بقوله: وهل من المفترَض أن نجد في الشعر الجاهليّ كلّ كلمةٍ تكلّم بها العرب؟

طبعاً لا، بالرغم من أنّ بين أيدينا ما يزيد على عشرين ألف بيتٍ جاهليّ -هي كلّ ما جمّعته الموسوعات الضوئيّة حتى الآن- أي ما يَعدل كتاباً أضخمَ حجماً من القرآن الكريم. إنّ هذا الديوان الضخم هو بمثابة قاموسٍ للغة العصر الجاهليّ،

(١) العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله. **الفروق اللغويّة**. تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠م، ص٧٩.

(٢) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، ج١، ص١١١، حديث رقم ٣٠٤.

(٣) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٥، ص٨١٧، حديث رقم ٩٢٥٨.

ولكن من المهمّ الاحتكام أوّلا إلى وعينا التاريخيّ والاجتماعيّ واللغويّ والنقديّ لذلك العصر، وهو ما كنت أنطلق منه دائماً في أحكامي الأوّلية قبل الرجوع إلى الشعر الجاهليّ للتحقّق من صحّة هذه الأحكام أو تأكيدها.

ومع ذلك، يبقى احتمال الخطأ البشريّ وارداً خلف كلّ منعطَفٍ من منعطفات هذه الرحلة الاستكشافيّة الشاقّة، مهما كانت نسبة هذا الخطأ ضئيلة. صحيحٌ أنّه قد وصلَنا من الشعر الجاهليّ ما يساعدنا على الخروج بتصوّراتنا القريبة من الصحّة، ولكن يجب ألاّ نُغفل أيضاً حقيقة أنّ أضعاف ما وصلنا منه قد انقطع به المسير وتاه على أرصفة التاريخ فلم يصل إلى أيدينا منه إلاّ جزءٌ يسير.

وأخيراً، إنّ هذا اللفظ يُعدّ من المقوّمات اللغويّة التي تستقلّ بها سورة (الناس)، فهو لا يتكرّر في غيرها من السوَر أبداً.

**٤- الخنّاس:**

لا وجود لهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ مطلقاً. وإطلاق القرآن لفظ "الخنّاس" على الشيطان، الذي يخنس وينكمش ويختبئ استعداداً للانقضاض على فريسته، كان بطبيعة الحال استعمالاً مجازيّاً جديداً على العرب.

بل إنّ وجود الشيطان نفسه، بالمعنى الإسلاميّ، مُسلَّمةٌ جديدةٌ على العربيّ، ومختلفةٌ عن (الجنّ) الذين عرفهم العرب ونسجوا القصص الكثيرة عنهم، حتى جعلوا لكلّ شاعرٍ من شعرائهم جُنّيه أو شيطانه أو هاجسه الذي يضع له الشعر على لسانه[1].

ومن جديدٍ نضيف هذا اللفظ إلى الخصائص اللغويّة للسّورة؛ إذ لن نجده بعد ذلك في أيّة سورةٍ أخرى.

---

(١) وارجع إلى قصّة الشاعر الجاهليّ (الأعشى) مع هاجسه -أي جنّيه- (مِسحل بن أُثاثة)، وغيرها من قصص الشعراء مع الجنّ، في كتاب الأغاني للأصفهانيّ، انظر:

- الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، ط. ٢، (د. ت.)، ج٩، ص١٨٢.

**٥- يوسوس:**

ما ينطبق على لفظ (الوسواس) ينطبق على فعله أيضاً، سواءٌ من حيث اختفاؤه من الشعر الجاهليّ، أو من حيث جدّةُ استعماله وإطلاقُه على صوت الشيطان.

ويجب أن أعترف بأنني لم أجد هذا الفعل في الشعر الإسلاميّ أو الأمويّ بعد ذلك، أمّا في الحديث الشريف فإنّه يرد على ألسنة الصحابة غالباً، وليس على لسان الرسول ﷺ نفسه، كما في الحديث:

- .. أنّ رجالاً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ سألوا رسولَ الله ﷺ عن الوسوسة التي يوسوس بها الشيطانُ في أنفسنا، أن يَسقطَ أحدُنا من الثريّا أحَبُّ إليه من أن يتكلّم بها. فقال رسولُ الله ﷺ: قد وجدتُم؟ [أي هل شعرتم بهذا حقاً؟] ذلك صريحُ الإيمان[1]

**٦- الجِنّة:**

وهو جمع (جُنّيّ) أو اسم جنسٍ للجنّ، وهو لفظٌ قرآنيّ، إذ لا نجد هذا الجمع في الشعر الجاهليّ، وإنّما نجده هناك (الجِنّ).

**ثانياً - الصيغ والعلاقات اللغويّة:**

وبنظرةٍ أكثر شمولاً وعمقاً في أسرار الإعجاز التجديديّ في الصياغة اللغويّة وطبيعة العلاقات بين ألفاظ السورة، اللغويّة والنحويّة والبيانيّة، نستطيع أن نضع أيدينا على النقاط الستّ عشرة التالية:

**١- قل أعوذ:**

هذا تعبيرٌ جديدٌ على العربيّة، ولن يتكرّر بهذه الصيغة إلاّ مرّةً واحدةً في سورة (الفلق). ومن المهمّ ملاحظةُ أنّ المرّات الستّ الأخرى التي يرد فيها الفعل

(١) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام. **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط. ٢، ١٤٠٣هـ، ج١١، ص٢٤٣، حديث رقم ٢٠٤٣٩.

(أعوذ) بهذه الصيغة في القرآن سُبِق فيها جميعاً بفعل القول أيضاً، كما يتّضح لنا من الآيات:

- ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٧]
- ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨]
- ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ – ٩٨]
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

## ٢- أعوذ . . من شرّ:

هذا الفصل الطويل بين فعل الاستعاذة والمستعاذ منه يبدو، وبشكلٍ واضح، أمراً غير عاديٍّ في التقاليد اللغويّة العربيّة، ليس قبل الإسلام فحسب، بل في التراث اللغويّ العربيّ بشكلٍ عام، حتّى في القرآن الكريم نفسه.

فمن بين ١٥ حالة يتكرّر فيها الفعل ومشتقّاته في القرآن الكريم لا نجد هذا النوع من الفصل إلاّ في هذه السورة. ولنقرأ هذه الأمثلة القرآنيّة السريعة لنلاحظ قِصَرَالفاصل بين فعل الاستعاذة والمستعاذ منه:

- ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ [غافر: ٢٧]
- ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]
- ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

وما يعطي هذه الآية خصوصيّةً أكبر أنّ المستعاذ منه قد استقلّ بآيةٍ وحدَه، منفصلاً بذلك عن الآية التي تضمّنت فعل الاستعاذة، ولا يتكرّر هذا إلاّ في سورة (الفلق)، وإن كان الفاصل هناك أضيق كما هو واضح.

### ٣- ربّ الناس:

عثرت على هذا التعبير في ثلاثة أبياتٍ للَقيط بن شيبان (ت؟) وحاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.هـ) والأسود بن يَعفُر النّهشليّ (ت ٣٣ ق.هـ). وما يجعلني كبير الشكّ في صدق جاهليّة هذه الأبيات؛ ليس لغتها، ولا السمعة التاريخيّة للشعراء الثلاثة الذين نُسِبَت إليهم فحسب، ولكن لأنّ هذه السّورة تنفرد بالتعبير أيضاً، وبشكلٍ غير عاديّ، دون سائر سوَر القرآن. فرغم تكرار اللفظ (ربّ) في القرآن الكريم ٨٣٨ مرّة، وهو رقمٌ غير عاديٍّ حقّاً، وتكرار لفظ (الناس) ٢٤١ مرّة، وهو أيضاً رقمٌ غير عاديّ، فإنّهما لم يجتمعا قطّ إلاّ في هذه الآية. والتعبير إذن، هو أحد مقوّمات الشخصيّة اللغويّة لهذه السورة.

### ٤ – ملك الناس:

لقد أَلِف الناس لفظ (المَلِك) هكذا مجرّداً من أيّة إضافة، فإذا أضافوه فعلوا ذلك مع اسم البلد الذي يحكمه هذا الملك، فيقولون (ملك الهند، ملك إسبانية، ملك البرتغال..) أو مع اسم القوم الذين يحكمهم (ملك الفرس، ملك الفرنجة، ملك الروم..) أو مع ما يزيد مقامه رفعةً وشأناً (ملك الملوك، ملك الشرق والغرب..) ولكنهم لم يقولوا أبداً، ولا يُنتظر منهم أن يقولوا، (ملك الناس) لا في الشعر الجاهليّ ولا فيما بعده من تراثٍ شعريٍّ أو أدبيّ، وهنا سرّ خصوصيّة هذا التعبير القرآنيّ.

وممّا يزيد خصوصيّته بروزاً أن نعرف أنّ اللفظ (ملِك) قد ورد ١٣ مرة في القرآن الكريم لم يُضَف فيها إلى (الناس) إلاّ هنا، ممّا يمنح السّورة خصوصيّةً لغويّةً أخرى تنفرد بها دون باقي السور.

**٥ + ٦- ملكِ الناس/ إلهِ الناس:**

كلتا هاتين الآيتين بدأت بصفةٍ أو بدلٍ (ملكِ، إلهِ) وهو أمرٌ سبق أن عرفنا أنّه لم يكن معهوداً عند عرب الجاهلية في الوحدة اللغويّة الأولى والوحيدة التي عرفوها قبل القرآن، وهي الجملة.

ومن جديدٍ نتذكّر هنا ما يُنسب من مسجوعاتٍ قليلةٍ لبعض من عاشوا في الجاهليّة. إنّ مقارنةً نحويّةً بسيطةً وسريعةً تُظهر لنا الفرق بين هذه الظاهرة القرآنيّة ومسجوعة قُسّ بن ساعدة الإياديّ الذي عرفنا بعض أسجاعه، حيث يقول:

- أيّها الناس، اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبراً: سحائبُ تَمور، ونجومٌ تغور[1].

إنّ من السهل أن نلاحظ، وخلافاً لأسلوب الآيات، أنّ العبارتين الأخيرتين عند قسّ، مثلهما مثل باقي عبارات الخطبة، بدأتا بدايةً تقليديّة. فاللفظ (سحائب) هنا خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هذه سحائب، وجملة اللفظ (تَمور) صفةٌ له. وكذلك اللفظ (نجومٌ) الذي جاء خبراً لمبتدأ محذوفٍ، وجاءت جملة (تغور) صفةً له. إنّهما إذن جملتان كاملتان مؤلّفتان من مبتدأ وخبر، على حين ليس هناك محذوفاتٌ في الآيتين، ومن ثمّ فلا تشكّل أيٌّ منهما جملةً في ذاتها.

**٧ + ٨- ملك الناس/ إله الناس:**

لقد أضحت الآية القرآنيّة تشكّل إذن، وحدةً لغويّةً جديدةً كاملة، إنها الآن بمنزلة (الجملة) وهذه يُفترض فيها الاستقلاليّةُ والاكتمال، كما تعارَف العرب وتعارَف أهلُ أيّة لغة أخرى، ولكنّ هاتين الآيتين تأتيان -شأن آياتٍ كثيرةٍ غيرهما- خلافَ ذلك. إنّ كلاًّ منهما مؤلّفٌ من بدلٍ أو صفةٍ للّفظ (ربّ) الذي ورد في الآية

(١) القزويني، زكريا بن محمد. **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر، (د. ت)، ص٣٢.

الأولى، مع مضافٍ إلى هذا البدل أو الصفة، وهذا كلّه غير كافٍ لتكوين ما نسمّيه وسمّاه العرب الجاهليّون، أو قبلوه على أنّه "جملة".

ولكم أن تتخيّلوا طبيعة المفاجأة التي تلقّاها العربيّ الأوّل وهو يستمع إلى هذا التحدّي الجديد للوحدة اللغويّة الأولى التي اعتاد أن يكوّن منها لغته اليوميّة، بعد أن أعاد القرآن الكريم صياغة هذه الوحدة الأساسيّة وأبرزَها في ثوبها الجديد.

**٩- ربِّ.. ملكِ.. إلهِ..:**

أتلاحظ معي التدرّج التصاعديّ في هذه الصفات؟ فعدا عن توازي مواقعها في الآيات الثلاث، وتوازي وتكرار اللفظ الذي أضيفت إليه (الناس) في المواقع الثلاثة أيضاً، يفاجئ القرآن العرب بهذا التوضيح أو التنظير الجديد لمعنى الألوهيّة.

إنه يرتفع بهم شيئاً فشيئاً من صفة الامتلاك (ربّ الناس) -فالربّ هو الصاحب أو المالك، أو (المربّي) كما يقول الرازيّ- إلى المُلك الذي يشمل الامتلاك والسيادة معاً (ملكِ الناس) -لأنّ الربّ، رغم امتلاكه، قد يكون سيّداً أو لا يكون- إلى الألوهيّة التي تهيمن على كلّ هذه الصفات بشكلٍ مطلقٍ لا يحدّه حدٌّ أو تعريفٌ (إله الناس).

هذا الترتيب التصاعديّ في السورة هو في حدّ ذاته صياغةٌ غير عاديّة، وغير مباشرة، وغير تقليديّة، لعرض الفروق بين المعاني الثلاثة.

**١٠- إله الناس:**

شأن هذين المتضايفين الآخرين شأن (ملك الناس). فرغم عثورنا على التعبير (ربّ الناس) ثلاث مرّات على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، وهو أمرٌ نوّهنا بتحفّظنا تجاهه، فإنّنا لا نجد فيه التعبير (إله الناس) مطلقاً. ومع ذلك فإنّه يطفو على السطح فجأةً بعد نزول الوحي مباشرةً، فيتوالى في الشعر ٦ مرّات على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ.

وسيساعدنا في تقدير قيمة هذا الاستعمال القرآنيّ، ومدى تفرّده وتميّزه، لو علمنا أنّ اللفظ (إله) قد ورد ١١١ مرةً في القرآن الكريم ولفظ (الناس) ٢٤١ مرّة، ومع ذلك لم يلتقيا إلاّ في هذه الآية، وهو إذن تعبيرٌ آخر اختصّت به سورة (الناس) دون باقي سور القرآن الكريم.

## ١١- الذي يوسوس:

خلافاً للمعهود في الوحدة اللغويّة العربيّة (الجملة المفيدة) تبدأ هذه الآية/ الوحدة باسم موصولٍ (الذي) تابعٍ للفظٍ ورد في وحدةٍ لغويّةٍ سابقة (الوسواس) فهو صفةٌ لهُ، وقد سبق أن أوضحنا أنّنا لم نعرف مثل هذه البدايات المقطوعة للوحدات اللغويّة في الأساليب العربيّة، لا قبل القرآن الكريم، ولا بعده.

## ١٢- يوسْوِس في:

أغرب ما في الفعل (يوسوس) أنه يرِد أربع مرّاتٍ في القرآن تعدّى في كلّ منها بحرف جرٍّ مختلف، أو من غير هذا الحرف إطلاقاً:

لقد تعدّى هنا بالحرف (في) ولكنّه يتعدّى بحرف اللام في قوله تعالى:

- ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠]

ويتعدّى بالحرف (إلى) في قوله تعالى:

- ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ [طه: ١٢٠]

ولا يتعدّى أبداً في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾[1] [ق: ١٦]

والتعبير، مرّةً أخرى، خصوصيّةٌ من خصوصيّات هذه السورة، لم تشاركها بها أيٌّ من سوَر القرآن الكريم، فضلاً عن جدّة التعبير تماماً على اللغة العربيّة.

---

(١) نلاحظ هنا أنّ شبه الجملة (به) هو حالٌ من فعل الوسوسة وليس متعدّىً إليه، ولو حدث أن ذُكر هذا الأخير لقال (توسوس به نفسُه إليه) فيكون قد تعدّى بحرف الجرّ (إلى).

## ١٣- يوسوسُ في صدور:

إذا كان التعبير (يوسوس) يبدو غريباً وجديداً على العربيّ الأوّل، فممّا لا شكّ فيه أنه سيبدو أكثر غرابةً وأبعثَ على المفاجأة والدهشة إذا ارتبط بالصدور.

فالوسواس الخنّاس اسمٌ مجازيٌّ للشيطان جديدٌ على العربيّ، وها هي وسوستُه الآن تحتلّ في جسم الإنسان مكاناً مجازيّاً جديداً لها هو الصدور.

وبإمكاننا تصوّر تأثير هذا التعبير في الإنسان العربيّ لو قارنّاه بتأثير تعبيراتٍ أخرى محتمَلة. كأن نقول:

الذي يوسوس في الناس

فلا نحدّد له مركز استقبالٍ معيّناً في أجسام الناس. أو نذهب أبعد من ذلك فنحدّده قائلين:

في رؤوس الناس، أو ربّما:

في عقول الناس

أو نكون أكثر تحديداً لهذا المركز المتلقّي فنقول:

يوسوس في آذان الناس

فنجعل مركز الاستقبال هو المكان الطبيعي والحسّي لاستقبال الأصوات في جسم الإنسان: الأذن. ولكنّ القرآن الكريم جعله في الصدور، فغدا بذلك تعبيراً قرآنياً متميّزاً وخاصّاً بهذه السّورة، ولا سيّما إذا عرفنا الطرق المغايرة الأخرى لاستعمال لفظ (الصدور) والمعنى الأكثر شيوعاً له عند العرب في تلك الفترة، كما سنرى بعد قليل، ممّا يمنح السورةَ، إلى هذا، خصوصيّةً تضاف إلى خصوصيّاتها الأخرى التي أحرزتها بين باقي السوَر.

## ١٤- صدورِ الناس:

هذا أيضاً تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ آخر في السّورة، فإضافة الصدور إلى الناس أمرٌ غير مألوفٍ للأذن العربية، حتى ذلك العصر على الأقلّ.

ويمكن تقدير أهمّية ذلك لو علمنا أن اللفظ (صدور) يرد ٣٥ مرةً في القرآن لم يُضَف في أيٍّ منها إلى لفظ (الناس) إلاّ في هذه الآية. إنّها إذن، خصوصيّةٌ أخرى تضاف إلى سورة (الناس).

أمّا في الشعر الجاهليّ فيَرد اللفظ ١٥ مرةً على الأقلّ أضيفَ فيها إلى كلماتٍ عديدةٍ مختلفةٍ يعني فيها جميعاً: مقدّمةَ الشيء، أو سطحه، أو الجزء البارز منه، كما في قولهم: صدور رِكابكم - صدور الجِمال - صدور النعال - صدور الخيل - صدور الصافنات - صدور المنايا - صدور الرماح - صدور القنا - صدور المَشرفيّ - صدور الرجال (بمعنى مقدِّمات أجسادهم)، ولكن لن نجد على أيّة حالٍ التعبير القرآنيّ (صدور الناس) الذي اكتسب فيه اللفظ (صدور) معنى: (عقول) أو (قلوب) أو (نفوس).

إنّ هذا كافٍ، ليؤكّد لنا قرآنيّة وجدّة هذا التركيب، وهو تركيبٌ سيظلّ خارج القاموس الشعريّ العربيّ لعدّة قرونٍ قادمة، كما يؤكّد قرآنيّةَ المعنى المجازيّ الجديد للفظ (الصدور).

## ١٥- الجِنَّةِ والناس:

هناك ثنائياتٌ في اللغة العربيّة تعارفَ الناس عليها وأصبحت جزءاً من تقاليدهم اللغويّة، كقولنا: الخير والشرّ، والليل والنهار، والحقّ والباطل، والأنثى والذكر، والإنسان والحيوان، والسالب والموجب، والصالح والطالح، وغيرها كثير.

ولكنَ العربيّة لم تعرف اجتماع هذين اللفظين، ومن ثمّ اجتماع الجنسين (الجِنّة) و (الناس) هكذا على صعيدٍ واحد، إلاّ في القرآن الكريم، وقد اجتمعا فيه ثلاث مرّات.

والغريب أنّه حين يختلف أحد اللفظين في القرآن، كأن يتحوّل لفظ (الجِنّة) إلى الجمع الآخر (الجِنّ) أو يتغيّر لفظ (الناس) إلى (الإنس) يعتري التغيير اللفظَ الشريك أيضاً، فإمّا (الجِنّ والإنس) -وأحياناً (الإنس والجنّ)- وقد ورد هذا التركيب في القرآن ١٢ مرّة، وإمّا (الجِنّة والناس) وقد ورد فيه ٣ مرّات كما ذكرنا. ولن نجد في القرآن أبداً التركيب (الجِنّة والإنس) ولا التركيب (الجِنّ والناس) مما يلقي أمامنا مزيداً من الضوء على خصوصيّة التعبير وجدَّتِه على أذن العربيّ الأوّل.

### ١٦- موضوع السّورة:

وأخيراً، إذا كان عُتبة بن ربيعة، بليغُ قومه، قد عاد إليهم، وقد سمع من الرسول ﷺ ثلاث عشرة آيةً من مطلع سورة (فُصّلت) فلم يفهم منها -كما أخبرهم- إلاّ ذكرَ الصاعقة ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فماذا كان يمكن أن يفهم لو سمع هذه السورة، الجديدةَ بموضوعها، والغريبةَ بهذه الإشارات إلى الشيطان خاصّةً والجنّ عامّةً -بالمفهوم الإسلاميّ لهما طبعاً- وما يقع في آياتها من تداخُلٍ بينَ صفات الإنس والجنّ، وكذلك لو سمع هذه الدعوةَ الغريبة للنّاس في مطلعها لتلاوتها والتعوّذ بها من شرّ شياطين الإنس والجنّ؟!

## ثالثاً: السبائك القرآنيّة

على صغر هذه السورة نستطيع أن نضع أيدينا فيها على خمس سبائك لغويّةٍ جديدةٍ لا تمتّ بصلةٍ إلى السبائك اللغويّة التي عرفها العرب قبل القرآن أو بعده، وهي:

### ١- قل أعوذ بربّ الناس:

هذه سبيكةٌ قرآنيّةٌ خاصّةٌ تبدأ بفعل أمرٍ يتوجّه إلى شخصٍ غير محدّد (قل) يليه فعلٌ مضارعٌ أُسند إلى متكلِّم مفردٍ -أي أنا أعوذ- يليه شبه جملةٍ جارٌّ ومجرورٌ (بربّ) مضافٌ إلى اسمٍ عامٍّ (الناس).

أرأيتم إلى هذا البناء المتميّز للعبارة المؤلّفة من أربع كلمات؟ ورغم أنّنا نجد في القرآن الكريم ٣٣٢ عبارةً تبدأ بالفعل (قل) فإنّه يخلو تماماً من مثل هذا البناء

اللغويّ، إلاّ مرةً واحدةً هي أوّل آيات سورة (الفلق): ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾. وقارنوا البناء النحويّ واللغويّ لهاتين السبيكتين بأبنيةِ سبائك قرآنيّةٍ أخرى ابتدأت بهذا الفعل، مثل:

- ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩١]
- ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]
- ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]
- ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]

والواضح أنّ الصياغة النحويّة واللغويّة للآيات الأربع، وكذلك لسائر الآيات التي تبدأ بهذا الفعل في القرآن، تختلف تماماً عن الصياغة التي تقوم عليها سبيكتنا.

**٢- ربِّ الناس. ملكِ الناس. إلهِ الناس:**

سبيكةٌ أخرى خاصّةٌ بالقرآن الكريم، مؤلّفةٌ من ثلاث ثنائيّاتٍ متواليةٍ كلٌّ منها مؤلَّفٌ من مضافٍ ومضافٍ إليه، ويختلف فيها المضاف دائماً، ولكن تتّفق الثنائيّات الثلاث في لفظ المضاف إليه (الناس).

ولم أجد هذا البناء الفريد مرةً أخرى في القرآن، ولا في غير القرآن أيضاً، وهي خصوصيّةٌ أخرى تضاف إلى خصوصيّات السورة.

**٣- مِن شرِّ الوسواسَ الخنّاس. الذي يوسوس:**

وهذه سبيكةٌ متميّزةٌ أخرى في السورة، فهي تبدأ بشبه الجملة (**من شرّ**) يليه مضافٌ إليه (الوسواس)، ويتبعه مباشرةً وصفٌ له على إيقاعه نفسه وقافيته نفسها (الخنّاس)، ثم جملةُ صلةٍ تُعَدّ وصفاً ثانياً له ويشتقّ فعلها (يوسوس) من

الموصوف (الوسواس) الذي جاء في مطلعها. ولا أعرف سبيكةً أخرى مشابهةً لها في القرآن الكريم أو غيره، فهي أيضاً سبيكةٌ خاصّةٌ بهذه السورة وحدها.

وبإمكاننا قياس كلّ سبيكةٍ من السبائك القرآنيّة على المبدأ الذي اقترحناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، فنشتقّ ميزان بنائها اللغويّ من الفعل (عمل) بحيث نتجنّب الفعل الذي اشتقّ منه الخليل بن أحمد تفعيلات الأوزان العروضيّة وهو (فعَل) فلا نقع في شبهة الخلط بين القرآن والشعر. ولو شئنا تطبيق مقياسنا الجديد على هذه السبيكة لكان بناؤها: (مِنْ عَملِ العَمْلالِ العَمّال)[1].

## ٤- في صدور الناس. من الجِنّة والناس:

إنها أيضاً سبيكةٌ جديدةٌ خاصّةٌ بالقرآن وحده، وتتألّف من شبه جملةٍ ومضافٍ إليه ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يليها شبه جملةٍ آخر هو ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ معلَّقٌ بحالٍ محذوفةٍ من الموصوف (الوسواس) -أي: الوسواس كائناً من الجِنّة والناس- ثمّ ينتهي الجزءان اللذان تتألّف منهما السبيكة بالكلمة نفسها (الناس).

## ٥- السورة بكاملها:

وأخيراً، من الواضح أن هذه السورة تنفرد بين باقي سور القرآن الكريم بهيكلٍ لغويٍّ متميّزٍ وخاصٍّ بها؛ إذ تنتهي وحداتها اللغوية الصغيرة الستّ -أي الآيات- بالأحرف الأربعة نفسها (النون المشدّدة والألف والسين: نّاس) ولا وجود لهذا النوع من الالتزام اللغويّ في تراثنا، شعره أو نثره، حتّى خرج علينا المعرّي في القرن الرابع الهجريّ بديوانه المعروف (اللزوميّات).

---

(١) لا يهمّنا، بل لا ينبغي لنا، في هذا المقياس القرآنيّ المقترح أن ننظر إلى الوزن العروضي بل إلى البناء النحوي، وعلى هذا نقيس أفعالاً مثل (اكتبوا، كُلوا، اُدنُوا) جميعاً على المقياس (اعمَلوا) بغضّ النظر عن وزنها العروضيّ.

## رابعاً: مواقع منفتحة

### ١- قل:

يكتسب هذا اللفظ قوّةً إيحائيّةً مزدوَجة، فهو، كما بيّنّا، أمرٌ صادرٌ من جهةٍ لم تُذكَر في السورة (طبعاً سيَفهم العربيّ فيما بعد أنّ الآمر هو الله)، ثم لم تُذكر الجهة التي وُجِّه إليها هذا الأمر، فالمخاطَب غير محدَّد، وإن كنّا نعرف أنه تعالى يخاطب الرسول ﷺ بداءةً، وذلك يفتح أمامنا خياراتٍ عدّة، لعلّ أهمّها إشعارُ من يردّد السورة، في حالات الخوف أو القلق أو ابتغاء السلامة، وكأنّ فعلَ القول موجّهٌ إليه شخصيّاً، وهذا يزيده تفاعلاً مع السورة، ويزيد من ثمّ استجابتَه الروحيّة لتأثيراتها.

### ٢- الوسواس الخنّاس:

وهو تعبيرٌ غنيٌّ بالظلال والإيحاءات بما اجتمع في لفظيه من جدّةٍ، وما شُحنا به من معانٍ مجازيّةٍ تمنح اجتماعهما معاً، وتفاعلهما في تركيبٍ واحد، مزيداً من الإيحاءات المركّبة والجديدة عن نوع الوسوسة وطبيعتها، وعن صاحب هذه الوسوسة وشكله المتحوّل وطبائعه المقلقة الغامضة.

## خامساً: جوامع الكَلِم

### ١- قل أعوذ بربّ الناس:

هذه الآية أضحت اسماً للسورة كثيراً ما يحلّ محلّ اسمها الأصليّ، وربّما غدت بذاتها، دون باقي آيات السورة، تعويذةً سريعةً يردّدها المسلم لو حدث أن فوجئ بشيء أخافه أو أزعجه أو أغضبه.

### ٢- الوسواس الخنّاس:

وقد مضى هذا التعبيرعلى الألسنة، بعد نزول السورة، فأصبح مصطلحاً يُطلَق على الشيطان حيثما ذُكر.

### ٣- يوسوس في الصدور:

وهو تعبيرٌ يُستخدم في وصف أي خاطر سوءٍ قد يَعرِض للإنسان في لحظة ضعفٍ أو استسلامٍ للأهواء، أو لوصفِ عمل الشيطان داخل النفس الإنسانيّة.

### ٤- السّورة بكاملها:

لقد تحوّلت السّورة إلى تعويذةٍ يتلوها كلّ مسلم مع السورة التوأم لها (الفلق)، لتكونا جزءاً من عباداته وحياته اليوميّة. وقد أكّدتْ أهميَّتهما في ذلك أحاديثُ نبويّةٌ عدّة:

- عن عُقبة بن عامر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: "أُنزِلتْ عليّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ إلى آخر السورة، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ إلى آخر السورة"[١]

- عن مُعاذ بن أبي عبد الله بن خُبيبٍ عن أبيه: قال: "كنتُ مع رسولِ الله ﷺ في طريق مكّة فأصبتُ خَلوةً من رسولِ الله ﷺ فدنوتُ منه فقال: قُل، فقلت: ما أقول؟ قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حتّى ختَمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حتّى خَتَمها، ثمّ قال: ما تَعَوَّذ النّاسُ بأفضَلَ منهما"[٢]

- عن عائشة رضي الله عنها: "أنّ النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فِراشه كلَّ ليلةٍ جَمع كفّيه ثمّ نفثَ فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثمّ يمسحُ بهما ما استطاع مِن جسدِه، يبدأُ بهما

---

(١) الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: دار الرسالة، ط. ٢، ١٩٩٩م، ج٢٨، ص٦٠٥، حديث رقم ١٧٣٧٩.

(٢) النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط. ٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ج٨، ص٢٥٠، حديث رقم ٥٤٢٩.

على رأسه ووجهِه وما أقبلَ من جسدِه، يفعل ذلك ثلاثَ مرّات"[1]

* * *

وبعد، إنها ثلاثٌ وثلاثون نقطةً من الإعجاز التجديديّ في القرآن اجتمعت في سورةٍ من عشرين كلمة، وهي نموذجٌ مصغّرٌ آخر عن حجم الإعجاز الذي فاجأ الوحي به العرب وأحدث فيهم هزّته اللغويّة والفكريّة الكبرى، والتي نحاول في هذه الدراسة أن نضع أصابعنا على بعض أسرارها، من غير أن ندّعي، ولا ينبغي لنا أن ندّعي، أنّنا ألممنا بكلّ هذه الأسرار.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩١٦، حديث رقم ٤٧٢٩.



obeikan.com